Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (9) Issue (6) 30 June (2026)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

المـــاء فـي شعر ابـــن الزقّـــاق

د . ميس فرات محمّد

جامعة البصرة / كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة / قسم اللغة العربية

Water in the Poetry of Ibn al-Zaqāq

Sabbatical Research Prepared by: Dr. Mays Furat Muhammad
mem995793@gmail.com
University of Basra – College of Education for Human Sciences
Department of Arabic Language

الخلاصة :

تُعَدُّ هذه الدراسة من الدراسات التي تسعى إلى الكشف عن حضور الماء في شعر ابن الزقّاق، بوصفه عنصرًا دلاليًا وجماليًا يُسهم في بناء الصورة الشعرية وثراء الخطاب. وقد تناول البحث لفظ (الماء) المباشرة ، إلى جانب الألفاظ غير المباشرة التي ترمز إليه كالبحر ، والمطر ، والغيث ، والدموع ، والسحاب ، والمُزْن ، والغمام.ومهمّتنا في هذا البحث أنْ نبيّن كيف يوظّف الشاعر هذه المفردات لتشكيل رؤيته الوجدانية وتصوير انفعالاته، ممّا يعكس عمق التجربة الشعرية واتساع قدرتها على استيعاب الدلالة الرمزية. وانتهى البحث إلى أنّ الماء عند ابن الزقّاق ليس عنصرًا توصيفيًا فحسب، بل هو أداة فنية تكشف عن مستويات نفسية وجمالية متعددة في شعره. الكلمات المفتاحيّة : الماء ، البحر ، المطر ، الغيث ، الدموع ، المُزن .

Abstract:

This study seeks to explore the presence of water in the poetry of Ibn al-Zaqāq, considering it a semantic and aesthetic element that contributes to the construction of poetic imagery and the richness of discourse. The research examines the explicit use of the word water, alongside indirect expressions that symbolize it, such as the sea, rain, rainfall (ghayth), tears, clouds, muzn, and ghamām.The aim of this study is to demonstrate how the poet employs these lexical items to shape his emotional vision and to depict his inner feelings, reflecting the depth of his poetic experience and the breadth of its capacity to accommodate symbolic meaning. The study concludes that water, in the poetry of Ibn al-Zaqāq, is not merely a descriptive element, but rather an artistic tool that reveals multiple psychological and aesthetic levels within his poetry. **Keywords:Water, Sea, Rain, Rainfall (Ghayth), Tears, Muzn.**

مقدّمة :

عُرف الشاعر الأندلسي بحبّه للطبيعة من رياض ، وأزهار ، وثمار . وكانت الأندلس تغري الشعراء بما تمتلكه من طبيعة خلّابة للكتابة عنها ، فلقد نشأ الأندلسيون في أحضان الطبيعة الهادئة وترعرعوا في أحضانها ، فانعكست هذه الطبيعة على أشعارهم ، وتغنّوا بها وبموضوعاتها ، وكانت صورة جميلة يرسمها الشاعر عن بلاده ، ومن مظاهر الطبيعة التي تمثّلت في شعرهم هو (الماء) وما يتصل به من مفردات ملازمة له وأحد شعراء الأندلس الذين تمثّلت عندهم هذه الظاهرة ، وهي ظاهرة ذكر الماء في الشعر هو ابن الزقّاق البلنسي ، وسنقسّم هذا البحث إلى مقدّمة ، يتبعها بيان لحياة الشاعر ورأي بعض الكتّاب في شعره ، ثمّ نتناول بالدراسة مفردات الماء في شعره ، التي تنوّعت بين ذكر لفظة الماء بشكل مباشر ، وغير مباشر كما في لفظة (السحاب) ، و(المزن) ، و(الدموع) ، وغير ذلك ، ثمّ نتبع ذلك بخاتمة فيها أهمّ نتائج البحث ، ثمّ قائمة بأسماء المصادر والمراجع .

المطلب الأوّل – حياته :

اسمه علي بن عطية بن مطرف اللخمي ، وهو من شعراء دولة المرابطين ، ولد في بلنسية ، واختلف في سنة ولادته فقيل هي (٤٨٩ أو ٤٩١هـ) وأنّ وفاته سنة (٥٢٨ أو ٥٢٩ أو ٥٣٠ هـ) . وكانت بلنسية من أخصب البيئات الغنائية ففيها الجواري والمغنيات والموسيقا ، والطبيعة الجميلة . ولقب (الزقاق) عُرِف به والده ، ثمّ لصق هذا اللقب به . ولقد أُطلق هذا اللقب على والده نسبة إلى حرفته في بيع الزقاق. والزق هو وعاء من جلد توضع فيه السوائل(١). وهي على وزن (فعّال) . وهذه عادة أهل الأندلس ، إذ كانوا يطلقون هذه الصيغة على ذوي الحرف ، فيطلقون على بائع السمك (حوّاتاً) ، ومن يعمل في الجنائز (جنّازاً) . ويذكر أنّ بينه وبين بني عبّاد قرابة ، فهو إشبيليّ الأصل ، ولكن نسب إلى بلنسية نسبة الى سكنه فيها . ويذكر أنّ الشاعر ابن خفاجة خاله . ولقد فقد الشاعر زوجته ، وشقيقه (حسن) الذي توفي شاباً، وزوجة أخيه ، وعدداً من أصدقائه ، ومات هو ميتة مبكرة وهو دون الأربعين من عمره (٢)وأمّا عن شعره فينقل صاحب (المغرب في حلي المغرب) قول ابن الإمام صاحب (سمط الجنان) فيه ، فيقول : ((المطبوع بالأفاق ، ذو الأنفاس السحرية الرقاق ، المتصرّف بين مطبوع الحجاز ومصنوع العراق ، الذي حكى بأشعاره زهر الرياض ، وأخجل بإشاراته عثرات الجفون المراض ، وراض بطبعه على شأو الرضا وطلق السرى الموطأ فانقاد له وارتاض)) (٣). وقول صاحب (المسهب في غرائب المغرب) عبد الله الحجاري ، إذ يقول فيه : ((من فتيان عصرنا الذين اشتهر ذكرهم وطار شعرهم ، وهو جدير بذلك ، فلشعره تعشق القلوب ، وتعلق بالسمع ، وأعانه ذلك مع الطبع القابل ، كونه استمد من خاله أبي إسحاق بن خفاجة ونزع منزعه)) (٤) .

وقال عنه الأديب والمؤرّخ ابن دحية الكلبي: ((ومن شعراء الأندلس الذين فاخرت به شعراء العراق ، وأجلب به المغرب على المشرق ، وجلبت إليه من أنفاسه نفائس الأعلاق ، وسارت أشعاره سير الأمثال في الآفاق ، الشاعر الرقيق أبو الحسن علي بن عطية بن الزقاق))(٥). فلا عجب أنْ يكون لشعر ابن الزقاق تلك الأهمية الكبيرة ، وذيوعه بين الناس ، لما يجمع به من طبع وصنعة ، وما يتضمّنه من رائحة الحِكم التي تقرّبه من الأمثال ، التي تسهم في انتشار الأبيات الشعرية بين الناس ، وعلوقها في القلوب ، لا سيما إذا تآلفت مع شعر الطبيعة ، وعلى وجه الخصوص تأثير مفردة (الماء) التي تضفي على الشعر صفاءً ، ونقاءً ، وهدوءاً ، يعكس لنا صفاء الشاعر ونقائه ، اللذان استمدّهما من بيئة الأندلس المفعمة بالحياة والنقاء .

المطلب الثاني – الماء في شعر ابن الزقاق

: ترد لفظة الماء في شعر ابن الزقّاق بشكل مباشر ، وغير مباشر ، وسنأتي على بيان كلّ منهما .

١– **لفظة (الماء) بشكل مباشر** : ترد لفظة الماء بشكل مباشر في ديوان شاعرنا ، وهو مكوّن طبيعي يؤثّر على وجدان الشاعر ، وتتفاوت المعاني التي ترد معه في البيت الشعري بحسب ما يتطلبّه السياق الشعري . ولقد دفعت أهمية الماء وما يتصل به من معاني النقاء والصفاء الشعراء الى استحضاره في شعرهم بطرق مختلفة ، ولقد حضر كعنصر حيويّ ، يعطي الدلالة تنوّعاً ، وله حضور رمزيّ ، كما يعبّر عن انتعاش العاطفة ، إضافة الى قيم أخرى سنتبيّنها بعد تقديم مجموعة من الأبيات الشعرية التي تضمّنت لفظة الماء بشكل مباشر ، ومن ذلك قول شاعرنا :

شُبَّتْ قريحتُهُ وهُذِّبَ خَلقُهُ فلم أدرِ هل هوَ جَذوةٌ أم ماءُ(٦)

يأتي الشاعر هنا بلفظة (الماء) المباشرة ليصف حالة النضج والاكتمال التي بلغها الممدوح عِلماً وخُلُقاً ، هذه الحالة التي بلغت أوج توهّجها حتى أنّها ذكّرته بجذوة النار ، وهي القطعة الملتهبة التي اشتعلت بكاملها فأصبحت قطعة واحدة متّقدة، فهي قد بلغت كمال اشتعالها كما بلغ الممدوح كماله المعنويّ في العلم والخُلُق. ثمّ يقع الشاعر في حيرة من أمره بين الجذوة والماء ، فالممدوح يشعله ويطفئه ، ويجمع النقيضين ، فهو البداية والنهاية في آن واحد ، وهو النار والماء ، وأوّل كلّ شيء وآخره ، فيأتي بلفظة الماء في صورة شعرية تجمع النقيضين لتضيء النفس بحضور الشيء وضدّه في علاقة تناغمية منسجمة .وتأتي لفظة (الماء) المباشرة أيضاً لتصوّر حالة من فقد الارتواء ، فيقول :

ذو ظمأ يشربُ ماءَ الطُّلا وليسَ يُرويهِ الذي يشربُ(٧)

يصوّر لنا الشاعر حالة من فقد الشيء ، والنقص ، والحاجة ، فيصوّر حالة الإنسان الظامئ الذي لا يرتوي من الماء مهما شرب ، فهو كشارب ماء الأعناق، أي : الدم . ويبدو هنا أنّه يشبّه القاتل الذي يقتل ضحيته ويتشوّق لشرب ماء عنقها وهو الدم بالشخص الذي يقتل حياته بيأسه ونظرته السوداوية للحياة ، هذا الشخص الذي لا يرتوي بالنّعم التي حباها الله به ، ولا يلتفت الى ما في الحياة من جمال وارتواء ، سيبقى ظمآناً يبحث عن شيء يروي عطشه فلا يجد ، لأنّه قتل أسباب الأمل في ذاته ، وقتل صفاءه . والصورة الشعرية هنا تناقض الصورة السابقة ، فهنا تقترن لفظة (الماء) بمعاني البيت السلبية ، وفي الشاهد السابق تتصل بالمعاني الإيجابية .

وينوّع الشاعر في توظيف لفظة (الماء) المباشرة لتنفرد هنا بوصف الطبيعة الخلاّبة ، فيقول :

فالماءُ مصقولُ الأديمِ مُفَضّضٌ والروضُ مطلولُ النسيمِ مُدَبَّجُ(٨)

نلاحظ هنا الموازنة الشعرية في ألفاظ هذا البيت الشعري (فالماء والروضُ)، و(مصقول الأديم ومطلول النسيم)، و(مفضّضُ و مدبّجُ) . والموازنة هنا ليست موسيقية فحسب ، بل هي صورة شعرية تقدّم لنا مظهراً من مظاهر الحياة المتوازنة التي سببها الماء، فالشاعر يبدأ بلفظة (الماء) ثمّ (الروض) لأنّ الأول مسبّب للثاني ، فلولا الماء لما كان الروض المدبّج أي المزيّن بحليّ الطبيعة من أزهار وثمار وأشجار ومناظر تأسر النفس ، أليس هو سبب الحياة ؟ قال تعالى : }وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ{ (الأنبياء : ٣٠) . أي أصل كلّ الأحياء منه ، فهو الذي يقيم توازن الحياة وهو سبب استمرارها .وينوّع شاعرنا بهذه اللفظة فنجدها حاضرة حتى في وصف رداء المقاتلين في الحروب فيقول :

والسابغاتُ على الكُماةِ كأنّها غُدرانُ ماءٍ بالنسيمِ تُدَرَّجُ(٩)

فهنا صورة تشبيهية للدروع الواقية التي يرتديها المقاتل في الحروب والمعارك، فهو يشبّه هذه الدروع الثقيلة والطويلة على المقاتلين بالغدران وهي المياه الراكدة ، كناية عن ثباتها واستقرارها وعدم تحرّكها من مكانها ، وهي تعبّر أيضاً عن قوّة هؤلاء المقاتلين وشدّة بأسهم ، وتماسكهم ، حتى لأنّها على ثقلها تنساب على أجسادهم كما ينساب الماء في جداوله .

وقد تجري لفظة (الماء) المباشرة مجرى الحكم ، كقول شاعرنا :

مهلاً ستُضْرَحُ عن مشاربِهِ القذى ويعودُ صَفواً ماؤهُ المتكدّرُ(١٠)

يبدو من هذا البيت الشعري أنّه صاحبه قد نضج واكتمل وعيه ، وخَبِرَ الحياة، فنطق بلغة الحكيم الذي أهدته الحياة تجاربها فبات عارفاً بأنّ كدرها لا يدوم ، وأنّ المستقبل يمكن أنْ يتغيّر ، وأنّ الحياة قد تسقيك اليوم شراباً غير نظيف ، ولكن هذا الحال لن يدوم ، بل ستعود الأيام عليك بحلوّ الشراب . وهنا تظهر نظرة الأمل الكبيرة عند الشاعر بالغد ، وحكمته في يقينه بعدم ثبات الحال وتبدّله يتّضح لنا ممّا سبق أنّ لفظة (الماء) المباشرة جاءت متنوعة ، فتارة اقترنت بالنضج والكمال ، وتارة أخرى بالفقد والنقصان ، ثمّ تفرّدت بوصف الطبيعة وتحقيق توازنها ، ولم يكتفِ الشاعر بتوظيفها في معاني الرقة بل أيضاً اقترنت مع معاني العنف ، فحضرت في وصف ثياب المقاتلين في سوح الحرب ، ثمّ جاءت في صورة أضاءت عتمة الإنسان اليائس ؛ لتكشف عن تواري اليأس وتبدّي الأمل . وهكذا بدت هذه اللفظة متنامية داخل النص الشعري عن طريق الصور التي هي نتاجٌ خالصٌ لخيال الشاعر المطلق .

٢- **لفظة (الماء) بشكل غير مباشر** : إنّ لفظة (الماء) لفظة شعرية تستوعب دلالات متعددة ، وهو سبب رئيسي لنموّ الكائنات ، والأمر ذاته بالنسبة إلى الشعر ، فنجد أنّ هذه اللفظة تنمو في النص الشعري وتتطوّر استعمالاتها ، فمن اللفظ المباشر إلى غير المباشر ، ومن التصريح إلى التلميح ، وهذا إنْ دلّ على شيء فهو يدلّ على عمق هذه اللفظة ، وغزارة المعاني التي تندرج تحتها ، وأنّها لفظة ملهمة لها دورها التعبيري في النص الشعري . ولقد تنوّعت عند شاعرنا في حضورها غير المباشر ، فتجلّت في (الدموع) و (السحاب) ، و(المطر) ، و(الغيث) و (المُزن) و (الغَمام) ، و(البحر) . وسنتبيّن كلّ مفردة وعلاقتها بالبيت الشعري الذي وردت فيه.

أ- **الدموع** : يرتبط ذكر الدموع بذكر البكاء ، فالدموع تُذرف نتيجة لحالة بكاء تعترض النفس البشرية ، وهي حالة من تفريغ الشحنات العاطفية الحبيسة ، التي تعبّر عن تأثّر عميق وعنيف داخل النفس ، وتأتي الدموع معبّرة عن حالة من الرقّة والانكسار أيضاً (١١). وقد تكون الدموع عند الفرح ، أو عند الحزن . وفي كلتا الحالتين يعدّ البكاء وذرف الدموع وسيلة لراحة الإنسان ، وفيه تفريغ لحزنه ومن دواعي البكاء الشوق ، والفرح ، والحزن ، والندم ، وأعلى مراتب البكاء وأصدقها هو بكاء الوجدان . فهو لا يكون إلاّ عندما يفيض الوجد بمشاعره ، وعند قوّة الإحساس ، ووجع القلب (١٢). وللخبراء النفسيين رأي بانهمار الدموع ، فهم ينصحون الإنسان عند التعرّض إلى مواقف نفسية صعبة أو توتّر عصبي أنْ يطلقوا العنان لدموعهم بالانهمار ؛ لما في ذلك من أثر في إزالة التوتّر النفسي والتخلّص من الضغط العصبي (١٣). وتحضر لفظة (الدموع أو الدمع أو المدامع) بكثرة في ديوان شاعرنا ، ومنها قوله :

فما زلتُ أُذري أبحراً من مدامعي على خائضاتٍ أبحراً من غياهبِ(١٤)

هنا يعبّر الشاعر عن حزنه بفراق الأحبّة ممّن رحلوا عن نور الحياة ، وخاضوا بحار اللجج والظلام ، ويؤكّد حزنه الشديد بالتأكيد على لفظة (الماء) غير المباشرة في (مدامعي) ، و (أبحر) التي تكررت أكثر من مرة ، ليعبّر عن شدّة غزارة هذه المدامع التي عبّر عنها بـ (أبحرٍ من مدامعي) ، وأبحر المدامع هذه تشابه أبحر الظلمات التي رحل إليها الأحبّة والمجهول القاتم ، وهذه النظرة الغارقة في مدامع الحزن هي نظرة الشاعر المقترنة بمعاني الفراق والفقد ، وإلاّ قد يكون رحيل الأحبة بالنسبة إليهم نور وسلام لا غياهب وظلمات وقد تأتي لفظة (الدمع) متفرّدة بالبيت الشعري غير مقترنة بألفاظ الماء الأخرى ، كما في قوله :

ذهَبتِ فاستعبرَ طرفي دماً مُفَضَّضُ الدمعِ بهِ مُذْهَبُ(١٥)

تأتي لفظة (الدمع) هنا في صورة لونيّة تتلوّن باللون الأحمر ، وتتمثّل في البكاء دماً . وصورة لونية أخرى تعكس لنا حالة هذا الدمع الذي تشوبه الصفرة ، وربّما صفرته كناية عن نفاسته ، وهذا واضح في قوله (مُذْهَبٌ) ، فالصفرة ملازمة لمعدن الذهب النفيس . والشاعر هنا يعبّر عن عطائه لأعزّ وأنفس ما يملك ، وهي الدموع ، وهي عزيزة عليه لأنّ فقدها يمثّل فقد لكبرياء الرجل وغروره .

وتذكّر الريح اليمانية الشاعر بأحبابه فتهيج عبراته ، ويبتلّ نجاده بماء العين ، فيقول :

لا عُذرَ للعينِ إنْ هَبَّتْ يمانيةٌ ولم يبلَّ نجادي ماؤها السَّرِبُ(١٦)

تنهمر دموع الشاعر بغزارة حزناً على فراق الأحبّة ، ويحاول النسيان لكنّ الريح تذكّره ، وتقلّب مواجعه ، فتنطلق العين بدمعها ، وتعيد إليه الذكريات . وهنا نجد توظيف الشاعر للفظ غير مباشر للدموع يتجلّى في قوله (ماؤها) التي تعود على العين ، وربّما ذكره للفظة (ماء العين) لا (الدموع) لأنّها الأقرب لتمثيل مكانة المفقود في نفسه ، فكأنّه لا يذرف الدمع لفقده ، بل يذرف ماء عينه ، أي : حياة عينه ، وهذا تعبير رائع يفيض شاعريّة وألماً .ويشبّه الشاعر الدمع تشبيهاً ماديّاً فيقول :

والدمعُ طَلٌّ سافحٌ أو درُّ سِلْكٍ يُنْهبُ(١٧)

فهو يشبّه الدمع بالندى المبلّل لخديّه ، ويقرّب صورة شكله فيشبّهه بقلادة الدرّ التي تُنهب من صاحبها فتنفرط وتنحلّ ، وهذا كناية عن تساقط دمعه من غير إرادته، وعن تحكّم القدر بسلبه ما يحبّ ، وعن تشتّته وضياعه وتبعثر مشاعره كتبعثر القلادة التي ينهبها سارقة عنوةً ، ويقطعها عن عنق المسروق على حين غفلة منه . ويرسم لنا الشاعر صورة أخرى للدموع ، فيقول :

وسماءٍ نَضَحتْ خدّ الثرى بدموعٍ أسبلتها فانتضح(١٨)

تشارك الطبيعة هنا الشاعر حزنه ، فتبكي لبكائه ، وها هي السماء تهدي دموعها ، أي ماءها إلى الثرى لتبلّه بالحزن ، وتعلن تضامنها مع وجع الشاعر ، وربّما في ذلك إشارة لفقد المشاعر الصادقة من قبل المحيطين به ، فلا أحد من البشر يستطيع أنْ يشعر بما يشعر به ، ولا أحد يشاركه ألمه كما ينبغي ، وعندما تعجز الأرض وسكّانها عن مشاركته حزنه فالأمر متروك حينئذ للسماء ، التي قد تكون هنا رمزاً للخالق المطّلع على حال عبده وقلبه الكسير ، فعندما تنقطع السبل فلا ملجأ لنا إلاّ إلى السماء ، التي تستجيب لندائنا وتشاركنا ما نشعر به ، في مشهدٍ مكلّل بالصدق والصفاء .ويستفهم الشاعر عند حديثه عن المدامع قائلاً :

ومَنْ ذا الذي ينهى المدامعَ بعدما رأى الموتَ في روضِ الشبابِ يَرود(١٩)

الشاعر هنا يتساءل : هل يمكن أنْ يُلامَ على مدامعه من فقد أحبّته وهم في ريعان شبابهم ؟ فلفظة (المدامع) هنا مكثّفة ، ذات تأثير عميق ، عزّز من تأثيرها اقترانها بلفظتي (الموت) و(الشباب) ؛ لأنّ الألم يكون مضاعفاً إنْ كان المفقود في ريعان شبابه ، وبداية حياته . والشاب لا يُتوقَّع موته مبكّراً ولذلك فإنّ قتل التوقّع يدخل الشخص في حالة من الذهول والمفاجأة والصدمة ، وبالتالي يصل الى مرحلة الحزن الشديد والبكاء ، فينبغي ألاّ يُلام الإنسان بعد كلّ ذلك إنْ انهمرت عيناه بالدموع أو سبحت بهما كما يقول في البيت التالي :

سابحاً في لُججِ الدمعِ ولـ كنّني أشكو غليلَ العَطَشِ(٢٠)

يظهر الشاعر هنا وهو في حالة تقلّب وسط ظلمات الدمع ، ويغوص في هذه الدموع عائماً ، متقدّماً بين أمواجها ، غارقاً في مائها فلا يرتوي ، بل يجد نفسه أكثر تعطّشاً ورغبة للمزيد من الدموع ، طلباً لراحة نفسه وتنفيساً عن ألمها ، لكنّ عمق ألمه يحول بينه وبين الارتواء ، أي بينه وبين تفريغ عاطفته الحزينة ليرسم لنا صورة الحزن المتواصل والألم الملازم ويكثر الشاعر حديثه عن الدمع في أبيات كثيرة (٢١) حتى لتطغى هذه اللفظة على الألفاظ الأخرى بكثرتها ، وحضورها المتكرر ، الذي جاء في الأبيات كلّها ملازماً للحزن لا للفرح ، لتبيّن لنا نصوص الشاعر الشعرية حالته النفسية الحزينة التي هيمنت عليه وعلى ألفاظه ومعانيه .

ب- المطر : هو الماء المنسكب ، وجمعه أمطار (٢٢) . ولقد أولى ابن الزقاق لفظة (المطر) عناية خاصة ، إذ لم يكتفِ بذكر المطر بل مفرداته أيضاً مثل (الغمام) و (المزن) و (السحاب) و(الغيث) ، ولا شك أنّ لطبيعة الأندلس الخلاّبة دور في انعكاس صورة المطر على شعره .

بيضٌ مصاليتُ قضى سَرْوُهُم أنّ جَدَاهُمْ مَطَرٌ صَيّبُ(٢٣)

يوظّف الشاعر هنا المطر ليبيّن عطاء الممدوح الواسع ، هذا العطاء يمضي كالسيوف ، ولقد نالوا هذا الكرم بسبب رياستهم وسؤددهم ، حتى غدا عطاؤهم وفيراً ونافعاً ، يصيب كلّ ما مرّ عليه ، كالمطر الذي يفيض بنفعه على جميع المخلوقات من دون استثناء . وهذه الصورة من أجمل الصور التي تبين العطاء غير المشروط .

جـ- الغيث : ويؤسس الشاعر نصّه الشعري على لفظة أخرى من ألفاظ المطر وهي (الغيث) ، وجاء في لسان العرب أنّه هو المطر ، فهو الأصل ، ثمّ أطلقت اللفظة على ما ينبت به (٢٤). يقول ابن الزقاق فيه :

يجودُ عليها الغيثُ سحّاً ووابلاً وهطلاً ولكنْ دمعُ عينيَ أجْودُ

على حَسَنٍ أُفني دموعيَ حَسْرة ومِنْ بعضِ ما أُفني العَزَا والتَّجلُّدُ(٢٥)

ففي البيتين يشير الشاعر إلى عجز الغيث رغم كثرته وتنوّعه عن مجاراة دمعه حزناً على فراق من يحبّ ، فالغيث يجود بكلّ حالاته رقيقاً وغزيراً ومتتابعاً ولكن دمع عينه أجود من ذلك الغيث ، فهو يجمع هذه الأنواع وأكثر منها ، وكلّ ذلك لا يفي بحسرته الكبيرة ، ويرجو بكلّ ما يفنيه من أجله أنْ يعينه في الصبر على المكروه واحتمال البعد . ولطالما توسّل الشعراء بألفاظ المطر لتكون لهم عوناً في إيصال مشاعرهم الحزينة و((اتخذ المطر في أذهانهم صورة المُغيث من الهلاك ، فسمّوه غيثاً ، وصورة أصل الحياة فسموه حيّاً ، وصورة المُنجي من العذاب فسمّوه رحمةً)) (٢٦).

د- السحاب : وقد يأتي الشاعر بلفظة أخرى تتصل بالمطر وهي (السحاب) ، والسحاب لفظ على شيء يتمّ سحبه ، وسميّ كذلك لأنّه ينسحب في الهواء انسحاباً(٢٧). والسحاب رمز للخصب والنمو وصلاح الحال والارتواء ، وهي ذات وقع مؤثّر في النفس ، تنعش القلوب وتسكّن من روعتها (٢٨). ولقد وظّف ابن الزقاق هذه اللفظة في بيته الشعري ، في قوله :

ويا سحابَ المُزنِ ما بالُنا يشوقُنا ذيلُكَ إذ يُسحَبُ(٢٩)

يحرّك سحاب المُزن ما في نفس الشاعر من ذكريات واشتياق ، وتنزع نفسه إلى الانسحاب والتحرّك باتجاه من يحبّ ويشتاق إليه ، فها هو قلبه كالسحابة يطيرُ شوقاً بفكره وقلبه ، وهي تعيد إليه الأمل باللقاء من جديد . وربّما يذكّره ذيلها بأطراف ثوب الحبيبة التي تجرّ أذيالها عندما تمشي على مهل ، فالشاعر يتأمّل السحاب فيرى فيها صورة حيّة تثير حنينه وهواه .

هـ- المُزن : وتأتي لفظة أخرى من ألفاظ المطر في ديوان شاعرنا وهي لفظة (المُزن) ، وتعني السحاب الأبيض ذو الماء العذب(٣٠) . ولا شك أنّ افتتان الشاعر بالطبيعة جعله يوظّف كلّ تلك الألفاظ النديّة لتعبّر عن أحاسيسه المتنوّعة وغير المحدودة . يقول :

كَذُكاءِ الدَّجنِ مهما هَطَلَتْ عَبْرةُ المُزْنِ توارتْ بالحِجابِ(٣١)

يشبّه الشاعر زوال الأمور وعدم دوام حالها بأشعة الشمس التي مصيرها الزوال ، وبالسحاب الذي يختفي ويغيب بعد يوم غائمٍ وممطر . ويصوّر هذا الرحيل حزيناً بدليل قوله (عَبْرة المُزن) أي : دمعتها . وربّما في ذلك إشارة إلى تضامن الطبيعة معه وحزنها لحزنه ، لأنّه اعتاد بثّ شكواه إليها ، واعتادت هي على الاستماع إليه ويبكي الشاعر على سكنه الذي فقده بسبب الغربة والبعد عن الوطن ، بكاءً يختلط بمشاعر عذبة ، فيقول

لي سَكَنٌ شطّتْ بي غربةٌ جادتْ لهُ عينايَ بالمُزْنِ(٣٢)

لقد أخذت الغربة من الشاعر أكثر ممّا أعطته ، فقصاص الغربة يكمن في كونها تأخذ أكثر من أنْ تعطيك ، وأوّل ما تأخذه المكان ، وربّما تكون لفظة (السكن) عائدة على الأم أو الحبيبة التي شطّت ، أي : تجاوزت حدّها وأفرطت في البعد . وقد تكون الغربة معنوية لا مادية ، تتجسّد بفقد الاطمئنان والأمان والسلام ، هذه الحاجة المعنوية التي قد يفتقد إليها الإنسان حتى في وطنه .

و- الغَمام : تطلق لفظة (الغمام) على الشيء الذي تتمّ تغطيته ، يقال : غُمَّ علينا الهلال : إذا غطّاه الغيم وحال دون رؤيته (٣٣) ، ويطلق على السماء المغطاة بشكل كليّ بالسحاب ، على عكس السحاب الذي يغطي قطعاً متناثرة من السماء (٣٤) . ولقد حضرت هذه اللفظة في ديوان شاعرنا مرات عديدة منها قوله :

مُتهلِّلٌ مهما تَهلّلَ شيبُهُ كوميضِ برقٍ في غمامٍ ممطرِ(٣٥)

نلاحظ مجيء لفظة الغمام هنا مقترنة بمشاعر الفرح والتفاؤل والاستبشار ، وهذا واضح في قوله (متهلّلٌ) التي فيها معاني الامتلاء بالسعادة والإشراق فرحاً . والشاعر هنا يشبّه سعادة الممدوح وبُشره بوميض البرق الذي يعلن بداية معزوفة المطر . وقد تأتي لفظة (الغمام) مقترنة بالحزن ، كما في قوله :

ناحتْ عليهِ الشُّهْبُ وهي عرائسٌ وبكى عليهِ الغيمُ وهوَ جهامُ(٣٦)

هنا يصور لنا الشاعر بكاء وصياح وعويل الشهب في السماء حزناً على فقد الممدوح ، وهذه الشهب عرائس وهو ما يعطي صورة أشدّ ألماً لحزنها ، فهي كانت في قمّة سعادتها ولكنّها فقدتها بلحظة واحدة ، واشتعلت هذه الشعب بنيران حزنها وحرقتها ، وحتى السحاب الجهام ، أي : السحاب الذي لا ماء فيه بكى أيضاً حزناً عليه . ويكرّر الشاعر ألفاظ البكاء في (ناحت ، وبكى) للتأكيد على شدّة البؤس والأسى .

وقد لا يكتفي الشاعر بذكر لفظة (الغمام) مرة واحدة في البيت الشعري ، بل يكررها أكثر من مرة ؛ كما في قوله :

مرَّ الغمامُ على ثراكَ محيّياً فعلى الغمامِ تحيّةٌ وسلامُ(٣٧)

يبدو أنّ الشاعر يتلذّذ بهذه اللفظة فيكررها في البيت الشعري مع لفظة أخرى تقترن بها وهي (التحية) في قوله (محيياً ، و تحيّةً) ليكون الغيم هنا شكل من أشكال التواصل ، ومظهراً من مظاهر الاهتمام بالآخر . وهي تعطي البيت الشعري الحيوية ، وتوحي بالتعايش ، والسلام .والشاعر هنا يرسم لنا صورة رائعة لغمام يمرّ على قبر لشخص عزيز عليه ، وهذا الغمام يلقي بالتحية على هذا القبر ، وكأنّ الشاعر حمّل هذا الغمام أمانة نقل هذه التحية ؛ لصعوبة وصوله إليه بنفسه ، فأدّت الغيوم الأمانة ، ثمّ عادت الى الشاعر الذي بدوره حيّاها وسلّم عليها ؛ لأنّ فيها رائحة ثرى ذلك القبر ، أو أنّه فعل ذلك كنوع من الشكر وردّ الجميل لإيصال سلامه إلى صاحب القبر . وهنا يوظف الشاعر هذه اللفظة في بيت شعري يجمع بين مشاعر الحزن والفرح ، فهو حزين لأنّه لم يصل الى هذا القبر ولكنّه سعيد في الوقت ذاته لأنّه وجد وسيلة اتصال أخرى يستطيع الارتباط بواسطتها بصاحب الثرى .يتبيّن لنا من ذلك أنّ لفظة (المطر) وما تعلّق بها من ألفاظ لفظة واسعة ، متنوعة ، وقادرة على استيعاب مشاعر الشاعر المختلفة من فرح أو حزن ، وأنّ الشاعر أحسن اختيارها فأفردها تارة لبيت شعري يطفح حزناً ، وآخر يفيض فرحاً ، وأخيراً في بيت شعري يجمع بين الإثنين معاً .

ي- البحر : يأتي ابن الزقاق بألفاظ أخرى تتعلّق بالماء ومنها (البحر) ، والبحر كلمة تطلق على الماء الكثير ، وهي لفظة استعيرت لكلّ شيء واسع ، يقال : استبحر فلانٌ في العِلم : أي : توسّع فيه (٣٨). والبحر عند الشعراء مليء بالإثارة والجمال ، وسحره أثارهم لما فيه من مظاهر المتعة وغالباً ما أشار فيه الشعراء الى كرم ممدوحهم وفيض عطائه (٣٩). وهذا ما وجدناه أيضاً عند ابن الزقاق ، في قوله :

أمّا يدُ ابنُ عليٍّ العَليا فما ينفكُّ بحرُ نَوالِها يتموّجُ(٤٠)

يصف هنا ممدوحه بالبحر في كثرة عطائه وبذله الأموال ، وهذا البذل مستمر بدليل (فما ينفكّ) الدالة على استمرار الحدث . وعزّز إثبات كرم الممدوح لفظة (يد) لأنّ بها يتمّ العطاء ومنها يؤخَذ . ونجد ذلك أيضاً في قوله :

بحرُ الندى عَلَمُ الهدى شَرَف العِدا قُطْبُ السيادةِ والسناءِ الأبهرِ(٤١)

يصف هنا ممدوحة بصفات متعددة ولكنّ أولى هذه الصفات (الكرم) ؛ فهي الصفة الأغلب على الممدوح ، وهي الصفة الأظهر عليه ، فقد فاضت على صفاته الأخرى كما يفيض البحر بمائه ، ومن الكرم تنبثق الصفات الأخرى الإيجابية كالهدى والشرف والسيادة والرفعة والعلو ، وغيرها من الصفات التي يثير اجتماعها في شخص واحد الدهشة .

وقد يأتي الشاعر بلفظة (البحر) مقترنة بالكرم والتعجّب ، فيقول :

فواعجباً للبحرِ أرْدَتْهُ نُقطةٌ وللقمرِ الوضّاحِ أرداهُ كوكبُ(٤٢)

هنا يعجب الشاعر من تبدّل الأحوال ، من الكرم إلى البخل ، ومن العطاء الكثير إلى القليل . ومن تحوّل البحر الفائض بمائه الغزير إلى نقطة . وتبدّل حال الأرض انعكس أيضاً على حال السماء، التي ما عاد قمرها وضّاحاً باسماً ومضيئاً ، بل صار كوكباً مجهولاً ، مظلماً ، وقاتماً ، لا يقوى على إعطاء الضياء إلى الأرض. وهنا صورة رائعة لتضامن السماء مع الأرض ، والقمر مع البحر ، وهما المعتادان على مقابلة بعضهما ، فقد اعتاد الناس على رؤية وجه القمر على وجه البحر ، فإذا هما الآن في تقلّب من حالهما وتبدّل .

وقد يضع الشاعر لفظة (البحر) في موضع غير مألوف ، كما في قوله :

وسوابحٌ خاضت بها البُهْمُ الوغى لمّا طَمى بَحْرُ الحديدِ الأخضرُ(٤٣)

فهنا تأتي عبارة (بحرُ الحديدِ) مقترنة مع لفظة (الوغى) أي : الحرب . فالشاعر يرسم لنا صورة مهولة للحرب ومقاتليها الذين بدو كبحر الحديد بدروعهم وعددهم الكبير ، هؤلاء على الرغم من ثقل هذه الدروع إلاّ أنّهم خاضوا هذه الحرب بيسر وسهولة بدليل لفظة (سوابح) الدالة على الانسيابية والسرعة . وقد كانت لفظة البحر هنا خير معين للشاعر ليصف عدد المقاتلين وقوّتهم .

وقد تجري لفظة (البحر) مجرى الحكمة ، كما في قول ابن الزقاق :

ولْتحذرِ الرشقَ من سهمٍ عرضتَ لهُ مَنْ يزحمِ البحرَ لا يأمنْ مِنَ الغرَقِ(٤٤)

هنا صورة تحذيرية ، تتوشّح بالحكمة في شطر البيت الثاني ، وهنا يحذر الشاعر من الاقتراب للأمور التي نتوقّع منها الضرر ، ويؤكّد أنّ من يعلم بأنّ مزاحمة البحر قد تغرقه ولا ينتهي عن ذلك فهو يضع نفسه موضع الهلاك .

نتبيّن من ذلك أنّ لفظة (البحر) قد ترد في معانٍ متعددة ، فقد تأتي لوصف العطاء والكرم ، أو في وصف الحروب ومقاتليها ، أو في تبدّل الأحوال وتقلّبها ، وقد تأتي في الحكمة أيضاً ، وهذا يدلّ على أنّ معناها يوافق لفظها الدالّ على السِعة والكثرة.

الخاتمة

إنّ موضوع بحثنا قد خلص إلى جملة من النتائج وهي :

– انطلق الشاعر بتعبيره عن هذا الموضوع متأثّراً بالبيئة الأندلسية ، واستلهم صوره الشعرية منها .

– نوّع الشاعر في إيراد لفظة (الماء) بشكليها المباشر ، وغير المباشر . وحازت لفظة (الماء) غير المباشرة العدد الأكبر في أبياته الشعرية .

– وظّف الشاعر لفظة الماء وما يشابهها بكثرة في ديوانه ، وحازت لفظة (الدمع) وما يتفرّع عنها من ألفاظ مثل (المدامع والدموع) النصيب الأكبر من الأبيات الشعرية المتضمّنة لذكر لفظة الماء بشكل غير مباشر .

– غلبت الأبيات الشعرية المتضمنة للفظة (الدمع) على غيرها من ألفاظ الماء المباشرة وغير المباشرة ، وهذا يدلّ على شدّة حزن الشاعر ، وغزارة دموعه . وتبعها بالكثرة لفظة (البحر والماء) ، ومن ثمّ (الغَمام) فالـ(مُزن) و (المطر والغيث والسحاب)

– اقترنت لفظة (الماء) المباشرة وغير المباشرة بمشاعر متعددة ، كالفرح ، والحزن ، أو هما معاً ، والحرب ، والأمل ، واليأس ، والنقص ، والزيادة ، والكرم ، وغير ذلك . ممّا يدل على أنّها لفظة غنيّة وقادرة على استيعاب مشاعر الشعراء المتنوعة والمتغيّرة بتغيّر الظروف المحيطة بهم .

– ارتبطت المائيات عند الشاعر بصور لونية عكست لنا جماليّة اللفظة ومعناها

– وظّف الشاعر مائياته في المعاني الموحية باللين كالكرم ، والدالة على الشدّة كالحرب ، وهذا يدلّ على قوة هذه اللفظة ومرونتها.

هوامش البحث

[١١]) ينظر : لسان العرب ، ابن منظور (ت ٧١١هـ) ، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ، ومحمد الصادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، ومؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٩م ، مادة (زقق) : ٦٠/٦.

[٢]) ينظر : ديوان ابن الزقّاق ، تحقيق : عفيفة محمود ديراني ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ط) ، ١٩٨٩م: ٢٣ وما بعدها .

[٣]) المغرب في حلي المغرب ، ابن سعيد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤م : ٢/ ٣٢٣.

[٤]) المصدر نفسه : ٢/ ٣٢٣ .

[٥]) المطرب في أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤م : ١٠٠ .

[٦]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٦٦ .

[٧]) المصدر نفسه: ٨٤ .

[٨]) ديوان ابن الزقّاق البلنسي : ١١٦ .

[٩])) المصدر نفسه: ١٢٠ .

[١٠]) ديوان ابن الزقّاق البلنسي : ١٦٣ .

[١١]) ينظر : دلالة البكاء في الشعر العربي (رسالة ماجستير) ، غوثي بطاهر ومحمد جلول ، جامعة ابن خلدون ، ٢٠١٩م : ١٩ ، ٢١ ،

[١٢]) ينظر : المصدر نفسه : ٢٤ .

[١٣]) ينظر : أسس الصحة النفسية ، عبد العزيز القوصي ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، ط٤ ، ١٩٥٢م : ٣٨٤ .

[١٤]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٧٣ .

[١٥]) المصدر نفسه : ٨٠ .

[١٦])) ديوان ابن الزقاق البلنسي: ٨٨ .

[١٧]) المصدر نفسه : ٩٤ .

[١٨]) ديوان ابن الزقّاق البلنسي : ١٢٨ .

[١٩])) المصدر نفسه: ١٥٨ .

[٢٠]) ديوان ابن الزقّاق البلنسي : ١٩٥ .

[٢١]) ينظر : مجموعة من الأبيات الشعرية الأخرى التي وردت فيها لفظة (الدمع) ومشتقاتها في ديوان الشاعر : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ٢٠٣ .

[٢٢]) ينظر : لسان العرب ، مادة (مطر) : ١٣/ ١٣١ .

[٢٣]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٨٢ .

[٢٤]) ينظر : لسان العرب ، مادة (غيث) : ١٠/ ١٥٣ .

[٢٥]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ١٥٢ .

[٢٦]) المطر في الشعر الجاهلي ، د. أنور أبو سويلم ، دار عمار ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٧م : ٣٣ .

[٢٧]) ينظر : معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، سوريا ، ط١، ١٩٧٩م ، مادة (سحب) ٣/ ١٤٢

[٢٨]) ينظر : مفردات الماء في الشعر العباسي (رسالة ماجستير) ، علي غانم فلحي ، جامعة البصرة ، العراق ، ٢٠١٣م : ٤٢– ٤٣ .

[٢٩]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٨٠ .

[٣٠]) ينظر : لسان العرب ، مادة (مُزن) : ١٣/ ٩٦ .

[٣١]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٨٧ .

[٣٢]) المصدر نفسه : ٢٧١ .

[٣٣]) ينظر : لسان العرب ، مادة (غمم) : ١٠/ ١٢٧ .

[٣٤]) ينظر : مفردات الماء في الشعر العباسي : ٤٥ .

[٣٥]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ١٦٧ .

[٣٦]) المصدر نفسه: ٢٦١ .

[٣٧]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٢٦٥ .

[٣٨]) ينظر : لسان العرب ، مادة (بحر) : ١/ ٣٢٣.

[٣٩]) ينظر : مفردات الماء في الشعر العباسي : ٧٤ –٧٥ .

[٤٠]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ١١٧ .

[٤١]) المصدر نفسه : ١٦٦ .

[٤٢]) ديوان ابن الزقاق البلنسي: ٩٥ .

[٤٣]) المصدر نفسه : ١٦٢ .

[٤٤]) ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٢٢١ .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم .

١ – أسس الصحّة النفسيّة : عبد العزيز القوصي ، مكتبة النهضة المصريّة ، مصر ، ط٤ ، ١٩٥٢م .

٢– ديوان ابن الزقّاق : تحقيق : عفيفة محمود ديراني ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ط) ، ١٩٨٩م.

٣– لسان العرب : ابن منظور (ت ٧١١هـ) ، تحقيق : أمين محمّد عبد الوهاب ، ومحمد صادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، ومؤسّسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط٣، ١٩٩٩م .

٤– المطر في الشعر الجاهلي : د. أنور أبو سويلم ، دار عمار ، الأردن ، ط١، ١٩٨٧م .

٥– المطرب في أشعار أهل المغرب : ابن دحية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤م .

٦– معجم مقاييس اللغة : ابن فارس (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمّد هارون ، دار الفكر ، (د.ط) ، ١٩٧٩م .

٧– المغرب في حليّ المغرب : ابن سعيد ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

الرسائل الجامعية

١– دلالة البكاء في الشعر العربي : غوثي بطاهر ومحمّد جلول ، جامعة ابن خلدون ، الجزائر ، ٢٠١٩م .

٢– مفردات الماء في الشعر العبّاسي : علي غانم فلحي ، جامعة البصرة ، العراق ، ٢٠١٣م .